

السياسة العثمانية تجاه العراق 1514-1534م

أ.د. طاهر يوسف الوائلي
م.م. ياسين شهاب شكري
جامعة الكوفة - كلية التربية للبنات جامعة الكوفة - كلية الآداب

تقديم :

تميز العراق بموقعه الاستراتيجي الهام وإمكاناته الاقتصادية الكبيرة من زراعة ، وطرق تجارية مارة من خلال أراضيه ، الأمر الذي شكل دافعا ميمزا للكثير من الدول من أجل السيطرة عليه. ولم يشذ العثمانيون عن ذلك من خلال توجهاتهم لاحتلاله في مطلع القرن السادس عشر الميلادي . خاصة وأن ظهور الصفويين كقوة منافسة في المشرق ، وتهديدهم للحدود الشرقية للدولة العثمانية ، واحتلال بغداد وبقية مناطق العراق خلال المدة 1508-1534م . كان بمثابة دق ناقوس الخطر القادم ، بعد أن كانت الدولة العثمانية ترى في أوروبا هي العدو الأساس ، وخاضت ضدها الحروب العديدة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

لقد تناولت العديد من الدراسات العلمية التوجهات العثمانية نحو ضم مناطق العراق والمشرق العربي ، وضمن توجهات تكاد لا تخلو من تأثير القبول بالعثمانيين أو رفضهم . وإيجاد المبررات أحيانا للمنطلقات العثمانية من خلال التركيز على العامل الطائفي في الصراع العثماني- الصفوي وأثره على المنطقة ، وكذلك شعور العثمانيين بالخطر الأوربي القادم من الجنوب عبر غزو البرتغاليين للخليج وتهديدهم للحجاز ومصر وبقية المناطق ، بالإضافة إلى محاولة العثمانيين زعامة العالم الإسلامي من خلال السيطرة على الأماكن المقدسة. غير أن دراسة حالة العراق وأهميته الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة للعثمانيين لا تقل أهمية عن بقية العوامل التي دفعت العثمانيين للاستيلاء عليه ، خاصة وأن المرحلة التاريخية آنذاك كانت قد شهدت تطورا ملموسا في حركة التجارة الدولية والإقليمية ، وظهور الصراعات السياسية والعسكرية للسيطرة على المناطق

الحوية ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية.

1- العثمانيون والعراق (الدوافع والاهتمام):

إن معظم الدراسات التاريخية أشارت إلى أن من أهم دوافع حرك العثمانيين إلى التوسع إلى الشرق في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، هو ظهور الدولة الصفوية في إيران ، التي تبنت فكرا عقائديا وسياسيا معاديا لتوجهات الدولة العثمانية. ولغرض تسليط الأضواء على التحركات العثمانية تجاه العراق بوصفها جزءاً من ذلك التوسع ، لا بد من العودة قليلا إلى طبيعة العلاقات العثمانية - الصفوية آنذاك. لقد فرضت طبيعة النشأة والتكوين للدولة العثمانية ، والجغرافية الدينية والمذهبية التي حركت من خلاله ، إلى تبني الشعار الديني (الجهاد) ضد الدولة البيزنطية وأوروبا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. ولئن كان هذا الشعار مبررا في نظر الساسة العثمانيين وعلمائهم على أساس قاعدة (دار الإسلام ، ودار الكفر) ، فإن بروز قوة جديدة في الشرق وهم الصفويون ، كان له الأثر البارز في التحول السياسي والعسكري والعقائدي للعثمانيين الذين وجدوا في هذه القوة التوسعية المهاجمة أشد خطورة عليهم من أوروبا المنهزمة والمدافعة عن نفسها. (1) فجرت الدعاية العثمانية على وصف دولتهم بأنها تمثل زعامة العالم الإسلامي ، وأنها تدافع عن النهج العقائدي الصحيح (النسن) في وجه الدولة الصفوية التي وصفتها الدعايا العثمانية بأنها ذات العقيدة المنحرفة وتقصد بها (التشيع). وقد تبني الصفويون الاتجاه ذاته في الدعاية والممارسة ، خاصة في مناطق الحدود بين الدولتين في شرق الأناضول. ويشير علي شريعتي إلى هذا النوع من الدعاية بين الدولتين من خلال بعض العلماء والملاي بقوله:-

واللافت للنظر أن آثار تلك المذابح الطائفية بين الدولتين لم تظهر بشكل مباشر على الساحة العراقية آنذاك . على الرغم من سيطرة الصفويين عليها، إذ يبدو أن الصفويين كانوا راغبين في الحفاظ على الأوضاع المستقرة في العراق . ومنع العثمانيين من استغلال أية أحداث طائفية قد تحدث فيها لصالح دعاياتهم . والتوجه في توسعهم نحو مناطقه .

ومن جانب آخر قام السلطان سليم بفرض الحصار الاقتصادي على تجارة الحرير القادمة من إيران إلى مناطق الأناضول ومنها إلى أوربا حرمان الصفويين من الاستفادة من مداخلها المالية الكبيرة. لذا حاول الصفويون إيجاد مراكز بديلة . مثل: بغداد لكي تمر من خلالها تجارة الحرير إلى حلب ثم موانئ البحر المتوسط ومن هناك إلى أوربا.(10)

بدأت الاستعدادات للمواجهة العسكرية المباشرة بين العثمانيين والصفويين . حيث حشد السلطان سليم جيشاً كبيراً مزوداً بالأسلحة والمدافع . قادها بنفسه من العاصمة باتجاه شرق الأناضول . ومن هناك باتجاه مناطق شمال غرب إيران. إذ أن الصفويين كانوا قد استدرجوا العثمانيين نحو مناطقهم لقتالهم بمعنويات عالية . خاصة وأنهم سوف يقاتلون على أرضهم . ولهم الخبرة بجغرافية الأماكن لديهم.(11) فتمت المواجهة الحاسمة في (الديران)* بتاريخ 24 آب 1514م . حيث تمكن الصفويون في بداية المعركة من تحقيق الانتصار . إلا أن العثمانيين وبفضل السلاح الناري والمدفعية حسموا المعركة لصالحهم . واضطر الشاه إلى الانسحاب نحو الدواخل الإيرانية . تاركاً تبريز العاصمة التي دخلها السلطان سليم بجيشه في 5 أيلول 1514م.(13) وحاول إقناع كبار قادته بالاستمرار في ملاحقة الشاه والتوغل في العمق الإيراني لغرض القضاء النهائي على الصفويين غير أن العديد منهم رفضوا الفكرة . لخطورة الاستمرار في التوغل وقلة المؤن والإمدادات . مع صعوبة الطقس في الشتاء القارص. فانسحب السلطان من تبريز بعد أن ولى أحد الأمراء عليها . إلا أن الشاه تمكن من العودة إليها بعد طرد الحامية العثمانية الموجودة فيها.(14)

كانت من نتائج معركة جالديران دخول الإمارات الكردية في جنوب شرق الأناضول وبعض مناطق شمال العراق تحت سلطة العثمانيين.(15) فيما لم يستغل السلطان سليم ذلك الانتصار لصالح ضم بقية مناطق العراق . على الرغم من أن ذلك لم يكن عسيراً وفق السياقات العسكرية والموقع الجغرافي . ولتأخر دخول العثمانيين إلى بغداد لمدة عشرين عاماً. ويبدو أن عدم إقبال السلطان وجيشه على ضم العراق يعود للعوامل التالية:-

1-إن الهدف الأساس المعلن للحملة هو القضاء على الصفويين ونشاطهم الديني الموجه ضد مناطق الدولة العثمانية . وليس التوجه نحو مناطق أخرى مثل العراق.

2-كانت التوجهات التوسعية العثمانية حتى عام 1514م موجهة إلى خارج مناطق العالم الإسلامي وتحديدًا أوربا .

((ومع ظهور الحركة المنادية بإبادة السنة في إيران والمتوشحة بالتشيع وولاية علي (ع). كان الملالي في الدولة العثمانية يفعلون الشيء نفسه بذريعة الدفاع عن الإسلام وسنة النبي (ص) فبرتقي واحدهم المنبر ويشهر عن ساعده إلى المرفق ويغمرها في قارورة ملووة بالشيرة ثم يخرجها ليغمرها في قارورة أخرى ملووة بالذرة ويخرجها مرة ثانية ويتوجه إلى مخاطبيه بالقول كم من الذرة علققت بيدي هذه؟! وعندما يحار الحاضرون في الجواب نظرا لكثرة العدد يضرب صاحبنا ضربته بعد أن نجح في التأثير نفسياً عليهم فيصدر فتواه بأن من يستطيع أن يحظى برافضي ويقتله فإن نصيبه من الحسنات سيكون بقدر الذي علق بساعد الملالي)).(2)

بدأت العلاقة المتوترة بين العثمانيين والصفويين حتى قبل إعلان قيام الدولة الصفوية عام 1501م . إذ عمل السلطان بايزيد الثاني (-1481 1512م) على دعم توجهات بعض أمراء الآق قويونلو للتصدي للطموحات الصفوية.(3) وبعد وصول السلطان سليم الأول (1512-1520م) إلى الحكم . دخلت العلاقات بين الدولتين منعطفاً خطيراً . بسبب حالة العداء الشخصي بين السلطان والشاه .(4) وطموح كل منهما في التوسع على حساب الآخر. وساهم في توتر الأجواء استمرار النشاط الدعوي للصفويين في شرق الأناضول . الأمر الذي كان يمثل قلقاً كبيراً بالنسبة للسلطان على اعتبار أن انتشار العقائد الصفوية . وتلازمها مع طموحاتهم في التوسع . قد يشجع الرعايا الشيعة في الدولة العثمانية على التمرد ضدها والانضمام إلى الدولة الصفوية.

ومن هنا بدأ السلطان سليم بتهيئة الأجواء النفسية للحرب مع الصفويين من خلال الدعاية الإعلامية المضادة للعقائد الصفوية . وقيام عدد من كبار العلماء في الدولة العثمانية بإصدار الفتاوى التي تنص صراحة على تكفير الشيعة ووجوب قتالهم.(6) فأصدر السلطان سليم أوامره إلى البكلكريكية (حكام الولايات) . والسنجق بكية (حكام الألوية) في الأناضول بإجراء التحريات عن الشيعة وتسجيل أسماء المشتبه بهم في ميولهم للدولة الصفوية في سجل خاص . واستدعائهم لغرض التحقيق معهم. فجرى إعداد قوائم طويلة بأسماء هؤلاء . الذين بلغ عددهم نحو سبعين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال. وقام السلطان بتوزيع العساكر على مناطقهم مع فرق الإعدام المختارة لهذه المهمة . التي قامت في آن واحد بإعدام عدد كبير منهم قدر بأربعين ألف نسمة.(7) وهؤلاء تراوحت أعمارهم ما بين سبعة إلى سبعين عاماً . فيما تم ترحيل من نجا من القتل إلى الولايات العثمانية البعيدة عن مناطقهم بعد أن وضعت السلطات علامة مميزة على جباههم ليكونوا معروفين من قبل السكان الآخرين.(8) وعندما علم الشاه إسماعيل بذلك قام بارتكاب المذابح الجماعية ضد السنة في بلاده كرد على مذابح السلطان سليم.(9) فتحول الصراع السياسي بين الدولتين إلى صراع ذي صبغة طائفية لم ينتهي بنهاية معينة . وإنما امتد للقرون التالية.

الصفويون إلى إرسال بعض القادة العسكريين البارزين إلى بغداد لوضع الخطط اللازمة للدفاع عن بغداد. وقد انتقل الشاه إسماعيل بنفسه إلى بعض الأماكن القريبة من كرمينشاه بالقرب من الحدود مع العراق. ليكون على مقربة من الأحداث آنذاك (23). أما موقف السكان المحليين، فإن وجهاء وأعيان سكان مدينة عانة وقفوا إلى جانب الحملة العثمانية. وتقديراً لذلك تركت الدولة العثمانية أملاكهم بأيديهم مع إعفائهم من الضرائب. بعد أن أصبحت عانة سنجقاً (لواء) تابع لولاية ديار بكر (24).

لقد تمكن العثمانيون حتى عام 1520م من الوصول إلى مناطق: قلعة تكريت، التي أصبحت تابعة لسنجق الموصل التابع لولاية ديار بكر. ومن الجهات الغربية تمكن العثمانيون من الوصول إلى هيت، التي أصبحت ناحية تابعة لسنجق عانة التابع لولاية ديار بكر أيضاً. أما بغداد، فإن فكرة الاستيلاء عليها تم تأجيلها بسبب انشغال السلطان سليم بوضع الخطط اللازمة للاستيلاء على جزيرة رودس ذات الأهمية الإستراتيجية في البحر المتوسط. ووفاته قبل أن يقوم بتلك المهمة في أيلول 1520م. (25)

3- سياسة السلطان سليمان القانوني تجاه العراق 1520-1534:

تولى السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) بعد وفاة أبيه، وانشغل في السنوات الأولى بتوطيد أركان حكمه، غير أن تطورات الموقف في العراق لم تكن ببعيدة عن اهتمامات السلطان. فالتقارير والمعلومات كانت ترد إليه من والي ديار بكر محمد باشا باعتباره المسئول الإداري الأول عن مناطق عراقية تابعة لولايته (سنجق الموصل وسنجق عانة). إذ أشارت إحدى التقارير المرسلة من والي في السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان، إلى إرسال الشاه إسماعيل للمزيد من التعزيزات العسكرية إلى بغداد من أجل الاندفاع باتجاه تكريت وهيت لإخراج العثمانيين (26). وقد أكد تقرير آخر أرسله والي الوالي نفسه على وجود اتصالات بين الشاه إسماعيل، وبيكربكي (والي ولاية العرب (الشام) (جانبر دي الغزالي) *، بعد تمرد الأخير على الدولة العثمانية إثر وفاة السلطان سليم. وأن والي ديار بكر قام بتعزيز الحاميات العسكرية في الموصل وتكريت وعانة بالجند والعناد (28).

كان السلطان سليمان منشغلاً خلال العشرينات من القرن السادس عشر الميلادي بحروبه في أوروبا والبحر المتوسط (29). أما الصفويون، فإن وفاة الشاه إسماعيل عام 1524م، وتولي ابنه الشاه طهماسب (1524-1576م) الحكم، أدى إلى حدوث صراعات داخلية وتمردات قبلية، وتدهور للأوضاع في مناطق شرق إيران (30). فتأخرت المواجهة بين العثمانيين والصفويين، غير أن ذلك لم يمنع من استمرار حالة التوتر والعداء بين الطرفين من خلال سعي الشاه طهماسب إلى التحالف مع القوى الأوروبية ضد العثمانيين، والاستفادة من خبراتهم في

بدعوى الجهاد وفتح مناطق جديدة.

3- بروز الدوافع الدينية والسياسية في حملة السلطان سليم، وغياب الدوافع الإستراتيجية والاقتصادية عنها، التي سوف تكون أكثر وضوحاً في حملة سلفه السلطان سليمان عام 1534م.

4- لم تكن لدى العثمانيين الرؤية الواضحة آنذاك عن مدى نفوذ الصفويين في العراق، ولا سيما في بغداد، وكذلك مواقف السكان المحليين منه.

2- التوجهات العثمانية تجاه العراق 1516-1520م:

بدأ العثمانيون بالتوجه الفعلي نحو العراق بعد عام 1516م عندما حققوا انتصارهم الجديد على المماليك في موقعة (مرج دابق) * وسيطروا على بلاد الشام، والذي مثل تحولاً في توجهات السياسة العثمانية من الدفاع عن العالم الإسلامي إلى العمل من أجل السيطرة عليه. فالدولة العثمانية حسب رأي المؤرخ التركي أحمد جودت باشا، كانت ترى بأنه من الضروري أن تجمع جميع القوى التي تشكل عناصر (الخلافة الإسلامية) في الشرق والغرب وحتى الهند تحت قيادتها، وذلك لغرض تعزيز قوة العثمانيين وتأكيد زعامتهم للعالم الإسلامي (17).

وكان التحرك يسير وفق المسارين الرئيسيين الآتيين:-

1. ديار بكر- الموصل - بغداد. حيث تقدمت قوة عثمانية بقيادة بعد الانتصار في معركة مرج دابق بفترة قصيرة (أواخر عام 1516م) من ديار بكر باتجاه الموصل، فتمكنت من طرد الحامية الصفوية الموجودة فيها، وتحويل المدينة إلى قاعدة لإدارة العمليات العسكرية ضد الصفويين (18). إذ شرعت القوات العثمانية بعد ذلك بالتوجه نحو كركوك، ثم تكريت التي دخلت تحت الحكم العثماني في نيسان 1518م (19). واقتصر رد فعل الصفويين على إرسال التعزيزات العسكرية إلى بغداد من أجل الدفاع عنها، ثم التفكير بالتحرك من جديد لاستعادة الموصل (20).

2. حلب- أعالي الفرات - عانة وهيت. بدأ التحرك العثماني باتجاه العراق في هذا المسار متأخراً عن المسار الأول. والسبب في ذلك هو الاهتمام العثماني ومن خلال شخص السلطان سليم الأول بالتحرك نحو بقية مناطق بلاد الشام باتجاه فلسطين ثم مصر، التي تم الاستيلاء عليها من قبل السلطان في كانون الثاني عام 1517م، ثم عودته من جديد إلى الشام وعودته إلى استانبول في آذار عام 1918م (21). ثم جاء الاهتمام والنشاط باتجاه غرب العراق من خلال قيام قوة عثمانية استطلاعية بالتحرك من حلب في 19 مايس 1518م، وعبر السير بمحاذاة نهر الفرات حتى وصلت إلى مدينتي عانة وهيت الواقعتين على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات شمال غرب بغداد، لكنها عادت بعد مدة وجيزة، مع إعلان تبعية المنطقة للدولة العثمانية (22). ويبدو أن الهدف من تلك الحملة الصغيرة معرفة مواطن القوة والضعف لدى الصفويين وردود أفعالهم إزاء التحركات العثمانية، فضلاً عن معرفة مواقف السكان المحليين من العثمانيين. فلقد سارع

في زعامة العالم الإسلامي ، فإنّ العاملين الإستراتيجي والاقتصادي كان لهما الأثر البالغ في القيام بالحملة الجديدة من قبل السلطان سليمان . فالعراق بموقعه الجغرافي وامتداداته نحو الخليج الذي بدأ هو الآخر يكتسب أهمية خاصة . كان يمثل منطقة حيوية ممتدة من جنوب الأناضول إلى البحار الجنوبية . والسيطرة على هذه المنطقة يفضي إلى التحكم بمختلف الطرق والمناطق المجاورة . خاصة بعد ظهور قوة خارجية في المنطقة وهم البرتغاليون الذين سعوا إلى السيادة على البحار والممرات المائية . وقد واكب ذلك اتفاقهم مع الصفويين عام 1515م على تقسيم النفوذ والمصالح في المنطقة . والعمل معا ضد العثمانيين. (37)

أما فيما يخص الدافع الاقتصادي . فإن العثمانيين وجودوا من الضرورة بما كان السيطرة على أهم طريقين رئيسيين للتجارة هما:-

1. طريق الحرير . وهو الطريق القادم من الشرق باتجاه تبريز التي كانت هي تنتج الحرير أيضا . ثم يسير الطريق نحو أرضروم - توقات - بروصة - أوربا. (38)
2. طريق التوابل . وهو الطريق القادم من الهند والخليج باتجاه البصرة . ثم يسير برا نحو بغداد - حلب - سواحل البحر المتوسط - أوربا. (39)

فإذا كانت حملة السلطان سليم قد تمكنت من تحقيق السيطرة على الجزء الأكبر من طريق الحرير . فإنه لم يستفد منه آنذاك . فلقد لجأ سليم إلى فرض حصار اقتصادي على إيران ومنع استيراد الحرير الفارسي وبيعه . أما السلطان سليمان . فإنه - وبعد حملته على إيران - سمح بهذه التجارة بعد فرض ضرائب كبيرة على الحرير الفارسي المستورد . الأمر الذي أدى إلى ازدهار حركة التجارة . وزيادة الإيرادات المالية بالنسبة للدولة العثمانية. (40)

وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن التقارير الواردة إلى الدولة العثمانية عن أحوال العراق والوجود الصفوي فيه كانت تشير إلى ضعف قوتهم وعدم تمكن قواتهم من مغادرة بغداد نفسها . بالإضافة إلى امتعاض العشائر من سياسات الصفويين . (41) الأمر الذي أوحى إلى العثمانيين بسهولة السيطرة على بغداد وبقية مناطق العراق . وهو ما حدث فعلا من خلال الحملة التي قادها السلطان سليمان بنفسه . التي سميت في المصادر التاريخية التركية باسم (عراقيين سفري) . (42) وامتدت خلال المدة (ذي القعدة 940هـ / حزيران 1534م ولغاية رجب 942هـ / آب 1535م) . حيث دخل السلطان بغداد في 24 جمادي الأولى 941هـ / الأول من كانون الأول 1534م . ومكث فيها أربعة أشهر لغاية 27 رمضان 941هـ / الأول من نيسان 1535م . وكانت النتيجة ضم العراق بأسره تحت الحكم العثماني.

مجال الحصول على السلاح الناري الذي كان له الدور الحاسم في انتصار العثمانيين في موقعة جالديران. (31) ومهما يكن من أمر . فإن العثمانيين أصبحوا أكثر اندفاعا تجاه بغداد . ولا سيما بعد حركة ((ذو الفقار))* واستيلائه على بغداد (1528-1529م) . ودعوته للدولة العثمانية وإرساله الرسائل التي تؤكد تبعيته للسلطان لغرض الحصول على الشرعية والتأييد لحكمه . ومنع الشاه طهماسب الصفوي من التحرك ضده . فكان له ما أراد من خلال إقرار السلطان سليمان له حاكما على بغداد مع إرسال بعض الهدايا والخلع إليه. (33) ويبدو أن العثمانيين لم يكونوا مطمئنين لهذا الحاكم . بسبب طموحاته الشخصية في توسيع نفوذه إلى مناطق تابعة للعثمانيين . فلقد جاء في تقرير والي ديار بكر الجديد خسرو باشا عن حاكم بغداد ((ذو الفقار)) ما يأتي:-

((إذا ما تم الاستفسار عن أخبار أمير بغداد ذو الفقار بك وأوضاعه . فإنه بعد أن أرسل إلى السدة العليا (الباب العالي) خرج من بغداد على رأس جنوده وقصد المحل المعروف بسامراء وأرسل حشدا كبيرا من جنوده على أعراب الديار المعروفة بتكرت الواقعة قرب الموصل . والمنضوية تحت حكم حضرة السلطان الأعظم وقام بنهبهم وقتل جمع كبير منهم وسلب أموالهم..... كما وردت رسالة من عبدكم عبد الرحمن بك أمير عنا (عانه) أبلغ فيها عن أفعال (ذو الفقار) فذكر أنه بعد أن أغار على أعراب تكرت المذكورين أرسل جنودا إلى ديار هذه الثغور . وعندما كانوا يقومون بنهبها وسلبها قام سيد منصور بن سيد محمد كمانه بمنعهم وإن هذا عاد ذو الفقار إلى بغداد ... الخ)) . (34)

ويبدو أن الدولة العثمانية لم تحتج على أفعال ((ذو الفقار)) تجاه هجماته على مناطق تابعة لنفوذه . لغرض الاستفادة المؤقتة من وضعه في بغداد ووقوفه ضد الصفويين . غير أن الشاه طهماسب لم يمهل ((ذو الفقار)) الفرصة الطويلة في الحكم لكي يرسخ حكمه . وكذلك لمنع الامتداد العثماني إلى بغداد . خاصة بعد أن طرق مسامع الشاه إعلان العثمانيين دعمهم لهذا الحاكم . فجرد حملة قادها بنفسه إلى بغداد وحاصرها . ثم أغرى بعض أشقاء ((ذو الفقار)) بالمناصب فقاموا بتسهيل مهمة دخول الشاه إلى المدينة والقضاء على ((ذو الفقار)) . (35)

ومن هنا شعرت الدولة العثمانية بضرورة التحرك المباشر للاستيلاء على وسط العراق وجنوبه . وبدأت منذ مطلع الثلاثينات من القرن السادس عشر بتهيئة الأجواء للقيام بحملة كبرى لهذا الغرض . ولأجل ذلك أيضا قام السلطان سليمان بتهئية الأوضاع على الجبهة الأوربية من خلال عقد اتفاقية سلام مع النمسا في صيف عام 1533م. (36)

إن دوافع حملة السلطان سليمان باتجاه الشرق قد تطورت بشكل أكبر عن حملة أبيه السلطان سليم المار ذكرها سابقا . فبالإضافة إلى بقاء عامل الدولة الصفوية وتهديداتها والصراع السياسي المتأطر بالعامل الديني (الطائفي) . ورغبة العثمانيين

الاستنتاجات:

- 1- تركزت السياسة العثمانية تجاه العراق في عهد السلطان سليم الأول (1512-1520) بالنظر إلى كجزء من المناطق الشرقية للدولة، التي شكلت تهديدا حقيقيا لها بعد ظهور الصفويين واحتلالهم للعراق وشرق الأناضول.
- 2- لم يكن العراق من أهداف وتطلعات حملة السلطان سليم الأول عام 1514م، والانتصار الكبير الذي حققه على الصفويين في موقعة جالديران، على الرغم من انضمام جزء من شمال العراق إلى الدولة العثمانية.
- 3- تطلع العثمانيون للاستيلاء على العراق بعد موقعة مرج دابق عام 1516م، واتبعوا سياسة التحرك المرحلي الذي كان يتأثر بعوامل تتعلق بظروف الدولة العثمانية وبظروف العراق أيضا.
- 4- كانت التحركات العثمانية السياسية والعسكرية تجاه المناطق العراقية تسير وفق محورين رئيسيين هما: محور (ديار بكر- الموصل - بغداد)، ومحور (حلب - أعالي الفرات - عانة وهيت - بغداد).
- 5- تميزت السياسة العثمانية بعد اعتلاء السلطان سليمان القانوني للحكم عام 1520م بالنظر للعراق كموقع إستراتيجي وأهمية اقتصادية من خلال الاندفاع نحوه كم منطقة حيوية هامة تربطهم بالعالم الجنوبي (الخليج والهند)، مع الاندفاع في المواجهة مع الصفويين في منطقة جديدة تكون سدا منيعا أمام طموحاتهم في التوسع نحو مناطق أكثر أهمية بالنسبة للعثمانيين.
- 6- قام العثمانيون بالاستيلاء على مناطق الموصل وتكريت والمنطقة الغربية خلال المدة (1516-1520م)، أما مناطق وسط وجنوب العراق فقد تأخر وصولهم إليها حتى عام 1534م، بسبب انشغال العثمانيين في حروبهم بأوروبا، ونقص المعلومات لديهم عن الحكم الصفوي في تلك المناطق، وموقف السكان المحليين.

ملخص البحث

البحث يتناول تطور الموقف العثماني من العراق قبيل الاحتلال المباشر، إذ أن ظهور الدولة الصفوية كقوة كبيرة في إيران وتوسعاتها نحو العراق ومناطق شرق الأناضول، كان دافعا مهما لتحول العثمانيين في توسعاتهم من أوروبا باتجاه المناطق الشرقية. غير أن العراق لم يكن ضمن الحسابات السياسية العثمانية إلا بعد معركة مرج دابق عام 1516م، إذ برزت التوجهات العثمانية نحو العراق باعتباره ذا أهمية كبيرة من الناحيتين الإستراتيجية والاقتصادية، مع بقاء عامل الصراع والتنافس مع الصفويين الذين كانوا قد سيطروا قبل ذلك على العراق. وقد مرت السياسة العثمانية تجاه العراق بمرحلتين رئيسيتين، مرحلة السلطان سليم واهتماماته بالعراق خلال المدة (1516-1520م)، ومرحلة اهتمامات السلطان سليمان

القانوني خلال المدة (1520-1534م)، وقد تركزت السياسة العثمانية على التقدم التدريجي نحو السيطرة على المناطق العراقية عبر محورين رئيسيين هما: محور ديار بكر- الموصل - بغداد، ومحور حلب - غرب العراق - بغداد. وتكملت الجهود العثمانية في النهاية بالسيطرة على العراق بأسره، عبر حملة عسكرية قادها السلطان سليمان القانوني نحو بغداد في عام 1534م.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

- أوزبان، صالح، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي 1534-1581، ترجمة د. عبد الجبار ناجي، (بغداد: مطبعة الإرشاد، د.ت).
- إيفانوف، نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، نقله إلى العربية يوسف عطا لله، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الفارابي، 2004).
- البدليسي، شرف خان، شرفنامه، ترجمه إلى العربية محمد علي عوني وراجعه وقدم له يحي الخشاب، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962)، الجزء الثاني.
- بيات، فاضل مهدي، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، النصف الأول القرن 10هـ - 16م، تقديم خالد آر، (استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 2010).
- _____، الدولة العثمانية في المجال العربي، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002).

الهوامش:

- 1 يحاول بعض الباحثين وضع تفسيرات أخرى للتحويل العثماني باتجاه الشرق من قبيل الإشارة بأن العثمانيين قد بلغوا حالة الإشباع في التوسع بأوروبا، وأنهم وصلوا إلى مناطق دول وإمبراطوريات عريقة وقوية مثل: المجر والنمسا. والحقيقة أن التوسع العثماني لم يتوقف في أوروبا خلال الفترات اللاحقة، خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م)، علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية (طرابلس: مكتبة طرابلس العلمية العالمية، د.ت)، ص79.
- 2 علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد، تقديم إبراهيم دسوقي شتا، ط1، (بيروت: دار الأمير، 200)، ص76.
- 3 احمد فريدون بك، منشآت سلاطين عثمانية، (اسطنبول: د.م، 1274هـ)، ج1، ص353-354.
- 4 تعود حالة العداء الشخصي بين السلطان سليم والنشاه إسماعيل، إلى تدخل الأخير في الصراع على العرش

للمعركة مع العثمانيين لإمكانية حرك فرسان القزلباش فيها. بديع جمعه وأحمد الخولي، تاريخ الصفويين وحضارتهم، ط1، (مصر: دارالرائد العربي، 1976)، ج1، ص84-85.

13. تورد المصادر الفارسية معلومات تاريخية أكثر تفصيلاً من المصادر العثمانية عن معركة جالديران، وإن كانت لا تخلو من انحياز واضح للصفويين وتبرير الهزيمة التي لحقت بهم في المعركة للتفاصيل ينظر:

غياث الدين بن همام الدين الحسيني خواندمير، تاريخ حبيب السير في أخبار افراد وبشر، تقديم جلال الدين همائي، (تهران: بي جاب، 1333ش/1955م)، جلد چهارم، ص545-547؛ اسبيناقجي باشا زاده،

پيشين، ص108-110؛ اسكندر بيك تركمان، عالم آري عباسي، (تهران: چاپخانه موسوي، 1334ش)، ص42. وقد أشارت مصادر أخرى إلى مقتل ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل عربي من قوات الشاه إسماعيل، ومن غير المعروف أن هؤلاء كانوا من العراق أم من المناطق العربية في إيران،

غير أن الثابت أن نقيب الأشراف السابق في بغداد السيد محمد كمونة وكذلك حاكم بغداد الصفوي (خلفا بيك) كانا من أبرز من قتلوا من القادة في جيش الشاه. راجر، م. سيوري، خفيقات در تاريخ ايران عصر صفوي (مجموعة مقالات)، ترجمة عباسقلي غفاري فرد ومحمد باقر آرام، (تهران: مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1382ش)، ص102؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ط1، (بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، 1939)، ج3، ص353.

14. Shaw, op. cit, p.82 2.

15. شرف خان البدليسي، شرفنامه، ترجمه إلى العربية محمد علي عوني وراجعه وقدم له يحي الخشاب، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962، ج2، ص271؛ العدول، المصدر السابق، ص153-165.

* مرج دابق: أرض منبسطة في منطقة اعزاز بالقرب من حلب كانت في العهد الإسلامي منطلقاً للفتوحات الإسلامية تجاه الروم. وحدثت فيها المعركة الشهيرة بين العثمانيين بقيادة سليم الأول، والمماليك بقيادة قانصوه الغوري في 25 رجب 922هـ / 24 آب 1516م. شبكة المعلومات الدولية ((الأنترنت)).

موقع مرج دابق (www.marjdabig.spaces.live.com).

17. احمد جودت باشا، تاريخ جودت، (استانبول: دم، 1309هـ)، ج1، ص39-40.

18. فريدون بك، المصدر السابق، ج1، ص392-393.

19. علي شاكرعلي، ولاية الموصل في القرن السادس عشر دراسة

بين سليم وإخوته على وراثة الحكم بعد وفاة أبيهم السلطان بايزيد الثاني، حيث أنه تعاطف مع احمد شقيق السلطان سليم وأيده، كما رفض الشاه إسماعيل الاعتراف بشرعية اعتلاء السلطان سليم العرش، ولم يرسل له التهنية بعد جلوسه على العرش. ومن جهة أخرى سمح الشاه بإيواء المعارضين الذين هربوا من الدولة العثمانية، ووفر لهم مستلزمات الإقامة بغية استغلالهم فيما بعد لإثارة القلاقل والاضطرابات في الدولة = العثمانية. جاسم محمد حسن العدول، الدولة العثمانية أبان حكم السلطان سليم الأول 1512-1520، أطروحة دكتوراه، (جامعة الموصل: كلية التربية، 2004م)، ص113-114.

5. لم تكن عقائد الصفويين عند قيام الدولة ترتكز على اعتناق المذهب الإمامي الاثني عشري فحسب، وإنما عملوا من خلال أدوات مؤثرة أخرى في نفوس المؤيدين مثل: التصوف الصفوي (الأتباع والمريدين)، و(القزلباشية) القوة العسكرية المساهمة في نشر العقيدة والدفاع عن الدولة، بالإضافة إلى الدعاة العاملين في إطار الدعوة للصفويين. كامل مصطفى الشيبلي، الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر، (بغداد: مكتبة النهضة، 1967)، ص30-34.

6. جاء في بعض الفتاوى الصادرة آنذاك: ((أن كل ما يقوله علماء المذهب الشيعي هو كفر محض، وأن الجهاد ضد الكفر واجب، وأن ثواب قتل شيعي واحد أكثر من ثواب قتل سبعين كافراً عيسوياً (أي مسيحياً)).

محمد عارف اسبيناقجي باش زاده، إنقلاب الإسلام بين الخواص والعوام، تاريخ زندكاني ونير دهاي شاه اسماعيل وسليم ثاني، وقايع سالهاي 905-930هـ، به كوشش، رسول جعفریان، (قم: بي جاب، 1379ش/2001م)، ص75.

7. محمد فريد بك الحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان عباس، ط1، (بيروت: دار النفائس، 1981)، ص189.

8. اسبيناقجي باش زاده، همان منبع، ص75.

9. سلطان، المصدر السابق، ص82.

10. عباس اسماعيل الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية-الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، ط1، (بيروت: دار النفائس، 1999)، ص69.

11. Stanford J Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, (Combridg Univ Press, Vol I, p.81, 1978).

* جالديران: وهي أرض منبسطة من أعمال منطقة خوي، وتقع إلى الشمال الغربي من تبريز بمسافة 20 فرسخ (أكثر من 100 كم). اختارها الشاه إسماعيل كميدان

- في أوضاعها السياسية والإدارية والاقتصادية
 أطروحة دكتوراه ، (جامعة الموصل: كلية الآداب ، 1992) ،
 ص57.
 20 المصدر نفسه.
 21 سلطان ، المصدر السابق ، ص88-90.
 22 فاضل مهدي بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، ط1
 ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية
 ، 2002) ، ص253-254.
 23 حسين محمد القهواتي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين
 الأول والثاني 1534-1623 م ، رسالة ماجستير ،
 (جامعة بغداد: كلية الآداب ، 1975) ، ص75.
 24 بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، ص254.
 25 سلطان ، المصدر السابق ، ص98.
 26 نص التقرير في: فاضل مهدي بيات ، البلاد العربية في
 الوثائق العثمانية ، النصف الأول القرن 10هـ
 16 م ، تقديم خالد آرن ، (استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ
 والفنون والثقافة الإسلامية ، 2010) ،
 مج1 ، ص73-78.
 * جانبردي الغزالي: من ماليك السلطان قايتباي في مصر ،
 ارتقى المناصب في سلم السلطنة المملوكية حتى
 أصبح في عهد القانصوه الغوري حاكما على حماه. وعند
 قدوم العثمانيين بقيادة السلطان سليم عام 1516 م
 ، مال إليهم في معركو مرج دابق فكافأه السلطان بتعيينه
 واليا على ولاية العرب (دمشق) ، لكنه وبعد
 وفاة السلطان ترمز على السلطة العثمانية ، فأرسل السلطان
 سليمان القانوني حملة كبيرة تمكنت من القضاء
 على تمرده واعدامه في 27 كانون الثاني 1521م. شبكة
 المعلومات الدولية ((الانترنت)): أسامة محمد أبو
 نحل ، جان بردي الغزالي المملوكي والدولة العثمانية ، مجلة
 الفسطاط الالكترونية، (www.fustat.com) .
 28 بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية ، مج1، ص 79
 -80.
 29 قام السلطان سليمان بحاربة المجر وسيطر على بلغراد في
 آب 1512م. واستولى على جزيرة رودس في
 البحر المتوسط (1522و1523 م) ، ودخل عاصمة المجر (بودا
 بست) عام 1526م. ودخل في حروب
 متعددة مع إمبراطورية النمسا وحاصر العاصمة فيينا
 عام 1529م. سلطان ، المصدر السابق ، ص111-114.
 30 شهدت إيران في مطلع حكم الشاه طهماسب
 صراعات عديدة بين القبائل التركمانية الداعمة للسلطة
 وخاصة
 بين قبيلتي (شاملو، وتكلو). كما شهدت مناطق شرق إيران
 في هرات وخراسان هجمات للأوزبك بقيادة
- عبيد خان ، واضطر الشاه إلى التحرك بنفسه لقتاله
 ولأكثر من مرة. اسكندر بيك تركمان ، پيشين ،
 ص61-75.
 31 القهواتي ، المصدر السابق ، ص85.
 * ذو الفقار: أحد الزعامات الكردية ينتمي إلى عشيرة كلهور
 القاطنة آنذاك على الحدود في مناطق لورستان
 . إذ تمكن ذو الفقار من جمع الأتباع من حوله والانتصار على
 والي الصفويين على بغداد إبراهيم خان أثناء
 زهاب الأخير إلى إيران للقضاء الشاه طهماسب ، وتوجه ذو
 الفقار بأتباعه واستولى على بغداد ، وبدأ يدعو
 للدولة العثمانية لغرض الحصول على الشرعية في حكمه
 لبغداد ومنع الشاه من التعرض له ، غير أن الشاه
 طهماسب قاد حملة بنفسه وتمكن من القضاء على ذو الفقار
 بعد خيانة بعض أشقائه له. : ستيفن هيمسلي
 لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله إلى
 العربية جعفر الخياط ، ط6 ، (بغداد: مكتبة
 اليقظة العربية ، 1985) ، ص34-35.
 33 بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، ص157.
 34 نص الوثيقة في: بيات ، البلاد العربية في الوثائق العثمانية
 ، مج1 ، ص81-82.
 35 لونكريك ، المصدر السابق ، ص34-35.
 36 نيقولا إي إفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-
 1574 ، نقله إلى العربية يوسف عطا لله ، ط2
 ، (بيروت: دار الفارابي ، 2004) ، ص109.
 37 نصت الاتفاقية التي عقدت بين أحد مبعوثي الشاه
 إسماعيل الصفوي والقائد البرتغالي الفونسو البوكرك
 على قيام البرتغاليين بمساعدة الصفويين في إخماد الفتن
 والتمردات التي تحدث على السواحل الإيرانية
 ، وكذلك تقديم العون للصفويين للسيطرة على البحرين
 والقطيف ، بالإضافة إلى توحيد الجهود المشتركة
 ضد الأتراك العثمانيين مقابل تغاضي الشاه عن المطالبة
 بجزيرة هرمز أو التدخل في شؤونها ، والتي
 أصبح حاكمها المحلي خاضعا للحكم البرتغالي. نصر الله
 فلسفي ، إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر
 الصفوي 1500-1736 ، ترجمة محمد فتحي يوسف الريس ،
 (القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ،
 1989) ، ص14-15.
 38 طاهر يوسف الوائلي، (جارة الحرير في الدولة
 العثمانية)، آداب البصرة ((مجلة)) عدد خاص بوقائع بحوث
 المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب 6-7 آذار 2002م ، العدد 35 ،
 (البصرة: دم، 2002م) ، ص-819.
 39 صالح أوزبران ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في
 الخليج العربي 153-1581، ترجمة د. عبد الجبار

- ناجي ، (بغداد: مطبعة الإرشاد ، د.ت) ، ص27.
- 40 الوائلي ، المصدر السابق ، ص825-828.
- بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، ص260.
- 41 السابق ، ج1 ، ص46.
- 42 فريدون بك ، المصدر السابق ، ج1، ص392 : إبراهيم
- بجوي ، تاريخ بجوي ، (اسطنبول: مطبعة
عامرة ، 1283هـ) ، جلد أول ، ص174 : جودت باشا ، المصدر